ساحَة العَين - بَرجا

من فضاء جامع إلى مجال عبوري

علاء دمج

ساحة العين – برجا

من فضاء جامع إلى مجال عبوري

دراسة مورفولوجية إجتماعية

علاء دمج

مهندس معمار ومخطط مدن

1. المقدّمة

1.1.الإطار النظري: مفهوم الحيّز العام والساحة العامة

يُنظر إلى الحيّز العام في الأدبيات الفلسفية والاجتماعية والعمرانية باعتباره فضاءً مشتركًا يتلاقى فيه الأفراد وتتجسد من خلاله أنماط التواصل والتفاعل. وقد ظهر المفهوم أول مرة في كتابات الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Kant, 1784/1991) الذي ميّز بين الاستخدام العمومي للعقل، القائم على حرية التعبير في الفضاء العام، والاستخدام الخاص الذي يظل مقيَّدًا بالمؤسسات والوظائف. لاحقًا، أعاد يورغن هابرماس صياغة المفهوم في أطروحته: *التحوّل البنيوي للحيّز العام* (*The Structural Transformation of the Public Sphere*)، حيث اعتبره مجالًا وسيطًا بين الدولة والمجتمع المدني، تتداول فيه الآراء العامة عبر الصحف والمقاهي والصالونات، ورأى فيه مقياسًا لحيوية المجتمع المدني.(Habermas, 1962/1989)

أما في الحقل العمراني، فقد تطور المفهوم ليشير إلى الفضاءات المادية المفتوحة كالأسواق والشوارع والساحات والحدائق، حيث تتداخل الحركة بالأنشطة الاجتماعية والثقافية. ووفقًا لكارمونا وزملائه (2010)، فإن الحيّز العام يشمل جميع الفضاءات المتاحة للجميع والتي تشكّل إطارًا للحركة والتبادل والتفاعل. كما أكدت هيئة الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية أنّ الحيّز العام يشمل كل فضاء متاح للاستخدام الحر والمجاني من قبل الجميع دون دافع ربحي.(UN-Habitat, 2015)

وتُعد الساحة العامة النموذج الأوضح للحيّز العام، إذ تمثل مجالًا كثيفًا للتفاعل الاجتماعي المباشر، وقد تنوّعت وظائفها عبر التاريخ بين الرمزية (ساحات المهرجانات والاحتفالات) والوظيفية (الأسواق وممرات العبور). وقد ارتبطت الساحات في المدن التاريخية بدور اجتماعي وسياسي مركزي، إذ كانت مسرحًا

للمناسبات الوطنية والدينية، ومنطلقًا للتحركات الشعبية، إلى جانب كونها ملتقى للتجارة والأنشطة اليومية.

وهكذا، يتضح أنّ الحيّز العام ليس مجرد فراغ عمراني، بل منظومة متشابكة تجمع بين البعد الفلسفي–السياسي والبعد الاجتماعي–العمراني، ما يجعل دراسته أداة أساسية لفهم تحولات المدن المعاصرة، ومنها مدينة برجا وساحاتها التاريخية.

1.2.أهمية دراسة الساحات العامة في السياق اللبناني

تكتسب دراسة الساحات العامة في لبنان أهمية خاصة، إذ تشكّل هذه الفضاءات مرآة للتاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمدن والبلدات. فإلى جانب كونها نقاط تلاقي ومراكز للتبادل التجاري والاجتماعي، لعبت الساحات اللبنانية أدواراً محورية في مسارات التحولات الكبرى: فهي ساحات للتظاهرات والتحركات المطلبية، ومنابر للخطاب السياسي، وأماكن لاحتفالات دينية ووطنية، فضلاً عن كونها متنفساً يومياً لأهالي المدن والقرى.

غير أنّ هذه الساحات، وفي مقدمتها الساحات التاريخية مثل ساحة باب السراي في صيدا أو ساحة العين في برجا، تواجه اليوم تحديات متزايدة تتمثل في التراجع الوظيفي والاجتماعي. فقد تحولت كثير من هذه الفضاءات إلى مساحات عبور سريعة أو مناطق تجارية ضيقة، بفعل هيمنة حركة المرور والمركبات، وتفكك النسيج العمراني المحيط، والتعديات البصرية والتنظيمية. هذا التحول أفقدها تدريجياً دورها الحيوي كمجال للتلاقي والتفاعل بين مختلف الفئات.

في السياق اللبناني أيضاً، تكتسب دراسة الساحات العامة أهمية بسبب غياب سياسات حضرية شاملة تعيد الاعتبار للحيّز العام كحق جماعي، حيث تقتصر التدخلات في معظم الأحيان على مشاريع تجميلية أو إعادة تأهيل جزئية تموّلها منظمات مانحة أو مبادرات محلية، من دون مقاربة متكاملة تعالج العوامل

المورفولوجية والاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في استدامة هذه الفضاءات.

وعليه، فإن تحليل حالة ساحة العين في برجا يقدّم نموذجاً لإدراك كيفية تراجع دور الساحات العامة في لبنان تحت تأثير العوامل العمرانية والتنظيمية، ويوفر مدخلاً لفهم العلاقة بين الحيّز العام والوظيفة الاجتماعية في سياق بلد يعاني من ضعف في الإدارة الحضرية وغياب الرؤية التخطيطية.

1.3.أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى مقاربة ساحة العين في برجا كنموذج لفضاء عام تاريخي يعكس ديناميات التحول العمراني والاجتماعي في المدن اللبنانية، وذلك من خلال تحقيق الأهداف التالية:

1. تحليل البنية المورفولوجية للساحة ورصد تأثير شكلها الطولي والواجهات المحيطة بها على أنماط الاستخدام.
2. تشخيص طبيعة الاستخدامات الحالية (التجارية، العبور، الاجتماعية) وتحديد الفئات المستفيدة من الساحة.
3. رصد التغيرات في الدور الاجتماعي للساحة بالمقارنة مع وظيفتها التاريخية كمجال للتلاقي والأنشطة المشتركة.
4. تحديد العوامل المؤثرة في ضمور الوظيفة الاجتماعية، مثل هيمنة المركبات، التلوثات البصرية، وغياب الأثاث الحضري.
5. تقديم مقترحات عملية لإعادة تنشيط الساحة وتعزيز دورها كمجال عام حيوي يخدم سكان البلدة وزوارها.

2. منطقة الدراسة :ساحة العين – برجا

2.1 لمحة عن برجا :الموقع والتاريخ والنسيج العمراني

تقع برجا في إقليم الخروب، ضمن قضاء الشوف في جبل لبنان، وتُعدّ من البلدات الكبرى في المنطقة من حيث الامتداد الجغرافي وعدد السكان. تتموضع البلدة على تلة متدرجة تنحدر نحو البحر الأبيض المتوسط غرباً، وتُشرف من الشرق على السلسلة الجبلية الداخلية، ما يمنحها موقعاً استراتيجياً يربط الساحل بالجبل. هذا الموقع الوسيط جعل منها عبر التاريخ نقطة وصل ومحطة عبور على الطرق التجارية القديمة.

تاريخياً، تعود جذور برجا إلى حقب موغلة في القدم، إذ تشير الشواهد الأثرية إلى وجود استقرار بشري فيها منذ العصور الكنعانية–الفينيقية. كما لعبت أدواراً سياسية واجتماعية بارزة في العهد العثماني، حيث كانت مركزاً محلياً للتجمعات والأنشطة التجارية. وقد احتفظت حتى منتصف القرن العشرين بنسيجها العمراني التقليدي القائم على الأحياء المتلاصقة والبيوت الحجرية ذات الأسقف القرميدية، التي تعكس الطابع المتوسطي–اللبناني الأصيل.

شهدت البلدة في العقود الأخيرة تحولات عمرانية واجتماعية عميقة، حيث توسع العمران الحديث على حساب البساتين والمساحات الخضراء، وتعرض النسيج القديم لتراجع في وظيفته وصيانته، مما أثر في توازن العلاقة بين البلدة القديمة ومحيطها. ومع ذلك، ما زالت برجا تحتفظ بعدد من معالمها التراثية مثل ساحة العين، التي تمثل القلب النابض للبلدة القديمة ورمزاً لهويتها الاجتماعية.

إن فهم السياق الجغرافي والتاريخي والعمراني لبرجا يُعدّ أساسياً لفهم دور ساحة العين ومكانتها، باعتبارها انعكاساً للتحولات التي

شهدتها البلدة على المستويات المورفولوجية والاجتماعية والاقتصادية.

الموقع الجغرافي لبرجا

2.2 الموقع الجغرافي للساحة وعلاقتها بالنسيج القديم

تقع ساحة العين في قلب النسيج التاريخي لبلدة برجا، وتشكل نقطة التقاء رئيسة بين الأحياء القديمة والطرق الفرعية المؤدية إلى المركز. تتميز الساحة بطابعها الطولي الممتد بمحاذاة الطريق العام، ما يجعلها أشبه بممر حضري تتقاطع فيه حركة المشاة والمركبات على حد سواء.

الموقع العام لساحة العين

من الناحية المورفولوجية، تحيط بالساحة مجموعة من المباني القديمة ذات الطابع التراثي، تتخللها أبنية حديثة متفرقة أحدثت نوعاً من الانقطاع البصري وفقدان التجانس المعماري. وقد لعبت هذه المباني، بما تضمه من محال تجارية وخدمات محلية، دوراً في جعل الساحة مركزاً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي، وإن كان ذلك على حساب وظيفتها كفضاء للتلاقي والأنشطة الجماعية.

ترتبط الساحة بالنسيج العمراني المحيط عبر شبكة من الأزقة الضيقة والشوارع الفرعية التي تعكس الطابع التقليدي للبلدة القديمة. هذا الارتباط يجعلها بمثابة عقدة حضرية تجمع بين مختلف الاتجاهات، لكنها في الوقت نفسه تعاني من ضغط الحركة وكثافة الاستخدامات. إن تراجع دورها الاجتماعي يعود في جانب منه إلى هذا الموقع الاستراتيجي، الذي حوّلها تدريجياً من مجال للتفاعل إلى معبر رئيسي يطغى فيه البعد الوظيفي–الحركي على البعد الاجتماعي.

2.3 الوظائف التاريخية والاجتماعية للساحة

لطالما شكّلت ساحة العين في برجا مركزاً محورياً للحياة الاجتماعية والاقتصادية. فقد ارتبطت تاريخياً بالأنشطة اليومية لأهالي البلدة، إذ كانت ملتقى رئيساً للتجار والحرفيين، ومكاناً لتبادل السلع والخدمات، فضلاً عن كونها مساحة لتلاقي السكان في المناسبات الدينية والوطنية والاجتماعية. كانت الساحة بذلك تؤدي وظيفة مزدوجة :اقتصادية–معيشية من جهة، واجتماعية–رمزية من جهة أخرى. كما اكتسبت الساحة بُعداً سياسياً في مراحل متعددة من تاريخ البلدة، إذ كانت تُستخدم كنقطة انطلاق للتجمعات الشعبية والتحركات المطلبية، ما جعلها تُجسّد صورة مصغّرة للعلاقة بين الفضاء العام والمجتمع المحلي. وفي

خالد جمال عبد الناصر في ساحة العين برجا عام 1971 لإزاحة الستار عن تمثال والده الرئيس جمال بحضور الرئيس صائب سلام وجمهور من الفعاليات السياسية والحزبية

المناسبات الكبرى، تحولت إلى مسرح جماعي يتسع للأهالي والزوار، الأمر الذي عزّز مكانتها كحيّز جامع ومعبّر عن هوية.

غير أنّ التحولات العمرانية والاقتصادية التي شهدتها البلدة في العقود الأخيرة قلّصت تدريجياً هذا الدور التاريخي، حيث طغت الوظيفة التجارية والعبورية على حساب الطابع الاجتماعي والثقافي. وبذلك فقدت الساحة الكثير من رمزيتها القديمة، لتتحول من فضاء للتلاقي الجماعي إلى مجال يخدم حاجات آنية مرتبطة بالحركة والتجارة.

3. الإشكالية وأهداف البحث

3.1 صياغة الإشكالية الرئيسة

رغم ما تحمله ساحة العين من قيمة تاريخية واجتماعية ورمزية في وجدان أهالي برجا، فإنها اليوم تعيش أزمة واضحة في وظيفتها الأساسية. فقد تراجع دورها كفضاء عام للتلاقي

والتفاعل الاجتماعي، لتحلّ مكانه وظيفة يغلب عليها الطابع العبوري–التجاري، نتيجة تحوّلات عمرانية وتنظيمية متراكمة.

تتجلّى الإشكالية في التساؤل الآتي:
كيف ولماذا تراجع الدور الاجتماعي لساحة العين في برجا، وما العوامل المورفولوجية والوظيفية التي أسهمت في هذا التراجع؟

هذا السؤال الرئيس يشكّل المدخل الأساس للبحث، ويفتح المجال لطرح أسئلة فرعية تُسهم في تحليل أعمق لمكونات الأزمة وتداعياتها.

3.2 الأسئلة الفرعية للبحث

انطلاقاً من الإشكالية الرئيسة، تتوزع الأسئلة الفرعية للبحث على محاور متصلة بالتحليل المورفولوجي والوظيفي والاجتماعي للساحة، وذلك على النحو الآتي:

1. ما هي العناصر المادية المكوّنة لساحة العين؟ وكيف تؤثر خصائصها المورفولوجية (الشكل الطولي، حجم الساحة، الواجهات المحيطة) في طبيعة الاستخدامات الاجتماعية؟
2. ما طبيعة الأنشطة الغالبة داخل الساحة؟ وهل تميل إلى الطابع التجاري والعبوري على حساب الطابع الاجتماعي والتفاعلي؟
3. من هم المستخدمون الأساسيون للساحة؟ وما هي الفئات العمرية والاجتماعية التي ترتادها؟
4. ما الممارسات السائدة في الساحة؟ وكيف تنعكس على الدور الاجتماعي المفترض أن تؤديه؟
5. ما هي تصورات الأهالي والرواد لمستقبل الساحة؟ وكيف يقيّمون دورها الحالي مقارنة بدورها التاريخي؟

تتيح هذه الأسئلة مقاربة شمولية تدمج بين البعد المادي (المكان والبنية) والبعد الاجتماعي (الممارسات والتصورات)، بما يساعد على صياغة فرضية البحث واختبارها.

3.3 الفرضية

تفترض هذه الدراسة أنّ تراجع الدور الاجتماعي لساحة العين في برجا لا يعود إلى عامل واحد، بل هو نتاج تداخل جملة من العوامل المورفولوجية والتنظيمية والاجتماعية. ويمكن تلخيص الفرضية الرئيسة على النحو الآتي:

- إن الطابع الطولي الضيق للساحة وهيمنة حركة المركبات على فضائها،
- إلى جانب التلوثات البصرية الناتجة عن تعدد اللافتات والتعديلات العشوائية على الواجهات،
- فضلاً عن غياب الأثاث الحضري والتجهيزات الملائمة التي تعزز الراحة والتلاقي،

قد أدّت جميعها إلى تقويض دور الساحة كحيّز عام للتفاعل الاجتماعي، وحوّلتها تدريجياً إلى ممر وظيفي وتجاري أكثر منه فضاءً جامعاً لأهالي البلدة وزوارها.

هذه الفرضية ستُختبر من خلال التحليل المورفولوجي، رصد الاستخدامات، ومقاربة تصورات المستفيدين المباشرين من الساحة.

4 ـ المنهجية وأدوات البحث

4.1 المنهج الوصفي–التحليلي

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي–التحليلي باعتباره الأنسب لدراسة الفضاءات العمرانية والاجتماعية في حالتها

الواقعية. فالمنهج الوصفي يقوم على رصد الظاهرة كما هي في الميدان، من خلال توثيق خصائصها المورفولوجية، ووظائفها، وأنماط استخدامها. أما البعد التحليلي، فيتيح تفسير العلاقات بين العناصر المكانية والاجتماعية، وربطها بالإشكالية المطروحة حول تراجع الدور الاجتماعي للساحة.

وقد تم تبني هذا المنهج لقدرته على الجمع بين الوصف الدقيق للمعطيات الميدانية (الشكل، الحجم، الحركة، الأنشطة) والتحليل النقدي للنتائج في ضوء الأدبيات النظرية حول الحيّز العام. وهو ما يسمح بفهم شامل للعوامل التي تؤثر في دور ساحة العين ومكانتها في النسيج المديني والاجتماعي لبرجا.

4.2 أدوات جمع البيانات :الملاحظة – المقابلات – التوثيق الصوري

اعتمد البحث على أداتين أساسيتين لجمع المعطيات الميدانية:

- الملاحظة المباشرة

تم القيام بجولات ميدانية متكررة في أوقات مختلفة من النهار وأيام الأسبوع، لرصد أنماط الاستخدام في الساحة، من حيث حركة المشاة والمركبات، طبيعة الأنشطة التجارية، وتوزّع الرواد في الفضاء. وقد أظهرت الملاحظات الطابع العابر للساحة وضعف حضور الأنشطة ذات البعد الاجتماعي أو الترفيهي.

- المقابلات شبه الموجهة

أُجريت مجموعة من المقابلات الثنائية مع أصحاب المحال التجارية ورواد الساحة وسكان من محيطها المباشر. ورغم تنوع خلفيات المستجيبين، فإن إجاباتهم أجمعت على توصيف الساحة كمجال تجاري وعبوري بالدرجة الأولى، مؤكدة بذلك الفرضية القائلة بتراجع دورها الاجتماعي.

- التوثيق الصوري

استُخدم التوثيق الصوري كأداة مكمّلة للملاحظة والمقابلات، من خلال التقاط صور مباشرة للساحة ومحيطها العمراني. وقد ساعدت هذه الصور في إبراز الطابع الطولي للساحة، ورصد مظاهر التلوث البصري الناتجة عن اللافتات والأسلاك والتعديلات العشوائية على الواجهات، فضلاً عن توثيق غياب الأثاث الحضري والمرافق الداعمة للتلاقي الاجتماعي. وقد شكّل هذا التوثيق مادة بصرية داعمة للتحليل، ووسيلة لتأكيد الانطباعات الميدانية وإيضاحها.

4.3 النطاق الزمني والمكاني للدراسة

اقتصرت الدراسة على النطاق الجغرافي لساحة العين في البلدة القديمة لبرجا ومحيطها المباشر، بما يشمل المباني والطرق المتصلة بها. وقد أُنجز العمل الميداني خلال فترة زمنية محدودة امتدت لعدة أسابيع، شملت رصداً مباشراً في أوقات مختلفة من اليوم وأيام الأسبوع، ما مكّن من تكوين صورة أولية عن طبيعة الاستخدامات والأنشطة.

4.4 حدود البحث

تقتصر هذه الدراسة على الوصف والتحليل النوعي، بالاستناد إلى الملاحظة المباشرة والمقابلات والتوثيق الصوري. وعليه، فهي لا تقدم قياسات كمية دقيقة لحركة المرور أو نسب الاستخدام الاجتماعي، كما لم تشمل استبياناً إحصائياً واسعاً. ومع ذلك، فإن توافق الملاحظات الميدانية مع إفادات المستجيبين، مدعومة بالصور التوضيحية، يمنح النتائج مصداقية معقولة تمكّن من استخلاص مؤشرات أساسية لفهم الظاهرة موضوع البحث.

5. التحليل المورفولوجي للساحة -

5.1 شكل الساحة (الطابع الطولي/المسقط العام)

تتميّز ساحة العين بطابعها الطولي الممتد بمحاذاة الطريق العام، ما يجعلها أقرب إلى ممر حضري منه إلى فضاء مفتوح بالمعنى التقليدي للساحات. هذا الشكل الطولي يقيّد إمكاناتها كمجال للتلاقي، ويعزز من وظيفتها كمعبر يربط بين مداخل الحارات المحيطة والطريق الرئيس. إن ضيق العرض مقارنة بالطول، وغياب الفراغ المركزي، يقلّصان قدرة الساحة على استضافة الفعاليات الاجتماعية أو احتضان التجمعات الكبيرة.

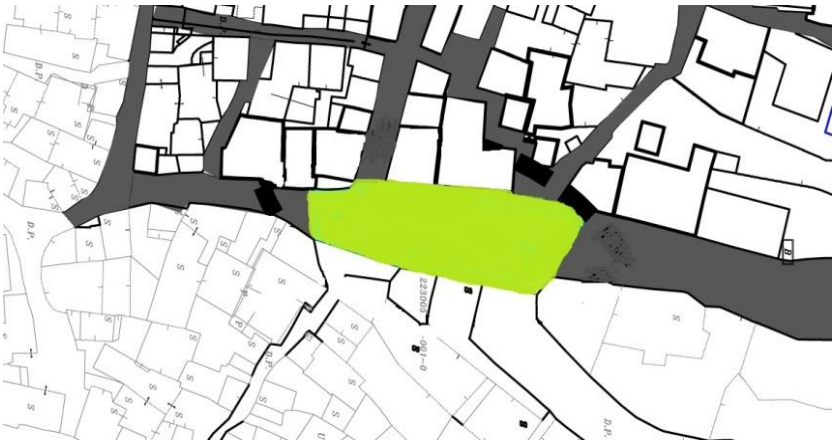

تتخذ الساحة شكلاً طولياً، فتتماهى مع الطريق

5.2 مداخل الساحة وعلاقتها بالحركة

ترتبط الساحة بعدة مداخل فرعية تؤدي إلى أحياء البلدة القديمة، إضافة إلى اتصالها المباشر بالطريق العام. هذا الموقع جعلها عقدة مرور أساسية داخل النسيج التاريخي. غير أنّ كثافة الحركة، ولا سيما المركبات التي تعبرها باستمرار، حوّلتها من مجال

المنفذ الذي يربط حي الجامع بساحة العين

اجتماعي إلى معبر رئيسي، وأفقدتها جانباً كبيراً من طابعها التفاعلي. إن اختلاط حركة المشاة بالمركبات، دون تنظيم واضح، أسهم في تراجع جاذبيتها كمكان آمن ومريح للتجمع.

5.3 الإطار المبني والواجهات المحيطة

تحيط بالساحة مجموعة من المباني ذات الطابع التراثي القديم، تتخللها أبنية حديثة متفرقة. هذا التباين في الواجهات أفرز مشهداً عمرانياً غير متجانس، يفتقر إلى الانسجام البصري الذي يميز الفضاءات التاريخية. بعض المباني يعاني من تدهور إنشائي وبصري، فيما تعرضت أخرى لتعديلات عشوائية أضعفت قيمتها المعمارية. وقد انعكس ذلك في فقدان الساحة لهويتها البصرية، إذ لم تعد تمثل واجهة متجانسة تعكس تاريخ البلدة.

مبنى الوقف إبان العمل على ترميمه ترميمه، وهو يقع إلى
الشرق من الساحة محاذياً العين

5.4 حالة المباني والتلوثات البصرية

تُعاني الساحة من تعدد مظاهر التلوث البصري، مثل اللافتات التجارية غير المنسقة، الأسلاك الكهربائية المعلقة عشوائياً، علب التوزيع المكشوفة، ومواد البناء المستعملة في ترميمات غير مدروسة. هذه المظاهر، إلى جانب تراجع صيانة بعض المباني، أسهمت في إضعاف المشهد العام وتقليل جاذبية الساحة. كما أن غياب سياسة واضحة لإدارة الواجهات والمحلات أدى إلى تكدّس عناصر بصرية مشوشة حجبت القيمة التاريخية والمعمارية للمكان.

التلوثات البصرية طاغية على مشهد الساحة

6. الاستخدامات والأنشطة

6.1 الوظائف الحالية للساحة

تؤدي ساحة العين اليوم وظيفة يغلب عليها الطابع العبوري–التجاري .فهي ممر رئيسي لحركة المشاة والمركبات، ومجال لتوزع المحال التجارية الصغيرة، أكثر مما هي فضاء للتلاقي أو النشاطات الجماعية. هذا التحول في الوظيفة يعكس فقدان الساحة لدورها التقليدي كمركز اجتماعي، واقتصارها على تلبية حاجات يومية مرتبطة بالتسوق والتنقل.

6.2 طبيعة النشاطات الغالبة (تجارية/عابرة)

تتحدد طبيعة النشاطات في الساحة حول محورين أساسيين:

- النشاط التجاري :يتمثل في انتشار المحال الصغيرة (بقالة، خضار، خدمات يومية)، والتي تستقطب حركة مستمرة من الزبائن.
- النشاط العبوري :حيث يستخدمها المشاة وسائقو المركبات كممر للانتقال بين أحياء البلدة والطريق العام.

بهذا، يطغى الطابع الوظيفي العملي على الساحة، فيما تتراجع الأنشطة ذات البعد التفاعلي والاجتماعي.

6.3 الممارسات الاجتماعية والأنماط السلوكية للمستخدمين

تظهر الممارسة اليومية أنّ الساحة فقدت جانباً كبيراً من طابعها كمكان للتلاقي، إذ يقتصر وجود الأشخاص على التبضع أو المرور السريع .كما يغيب عنها الطابع الاحتفالي أو الثقافي، ولم تعد تشهد أنشطة تفاعلية جماعية كما في السابق. الممارسات الاجتماعية فيها محدودة وفردية، تنحصر غالباً في التبادل التجاري السريع أو الانتظار القصير على أطرافها.

6.4 الفئات العمرية والاجتماعية المستفيدة من الساحة

تستقطب الساحة بالدرجة الأولى الأهالي القاطنين في محيطها المباشر، إضافة إلى المارة العابرين. الفئات الأكثر حضوراً هي الكبار والرجال العاملون في السوق المحلي، فيما تقل مشاركة النساء والشباب في استخدامها كمكان للتلاقي أو التنزه. هذا التوزع يعكس محدودية جاذبية الساحة كفضاء عام جامع، ويؤكد انحسارها في أدوار وظيفية ضيقة.

7. النتائج والتحليل

7.1 تأثير الطابع المورفولوجي على وظيفة الساحة

أظهر التحليل أن الشكل الطولي الضيق للساحة، وغياب الفراغ المركزي، جعلاها أكثر ملاءمة للعبور منه للتجمع. هذا التكوين

المورفولوجي يعزز الوظيفة الانسيابية للحركة، لكنه يقيّد إمكان استخدام الساحة كمكان للتلاقي الاجتماعي أو إقامة فعاليات عامة.

7.2 تأثير الحركة (المشاة/المركبات)

تبيّن أنّ هيمنة المركبات على فضاء الساحة، واختلاطها بحركة المشاة دون تنظيم، ساهمت في إضعاف شعور الأمان لدى المستخدمين، ودفعت كثيراً من الأهالي إلى تفادي البقاء فيها لفترات طويلة. وهكذا، أصبحت الساحة مجالاً للعبور أكثر منها مكاناً للجلوس أو التواصل.

7.3 أثر غياب الأثاث الحضري والتجهيزات

كشف التوثيق الميداني أنّ الساحة تفتقر إلى المقاعد، الظلال، الإضاءة المتناسقة، والمساحات المهيأة للتجمع. غياب هذه العناصر جعل من الساحة فضاءً غير مريح وغير جذاب للبقاء، ما قلّص من فرص استخدامها اجتماعياً، وحصرها في الأدوار التجارية والعبورية.

7.4 انعكاسات الوضع الحالي على الدور الاجتماعي للساحة

أفضت هذه العوامل مجتمعة إلى تراجع الدور الاجتماعي الذي لطالما أدّته ساحة العين في برجا. فقد تحولت من فضاء جامع يرمز إلى هوية البلدة وحياتها المشتركة، إلى مجال نفعي محدود الوظائف. هذا التحول انعكس على صورة الساحة في ذاكرة السكان، حيث يُنظر إليها اليوم بوصفها سوقاً أو ممراً، أكثر منها رمزاً اجتماعياً أو ثقافياً.

7.5 ساحة مأزومة: عوامل الأزمة وتجلياتها

تعيش ساحة العين اليوم أزمة بنيوية ووظيفية واضحة لكل من يرتادها، تتمثل أساسًا في تحولها إلى معبر رئيسي للمركبات على

حساب دورها الاجتماعي. لقد أدى هذا التحول إلى تقليص حركة المشاة، وتالياً إلى غياب الوظيفة الاجتماعية التي شكّلت أحد أبرز أبعاد الساحة في البلدة القديمة.

حي الجامع التاريخي، هكذا يبدو اليوم بعد أن اجتاحته موجة البنيان العشوائي إبان الحرب الأهلية

يُعزى هذا الواقع إلى مجموعة من العوامل المترابطة. فقد شهدت الأحياء المحيطة بالساحة تراجعًا عمرانيًا واجتماعيًا، تمثل في هجرة السكان الأصليين وحلول وافدين محلهم، ما أفضى إلى نشوء بيئة اجتماعية أقل تجانسًا، انعكس ذلك في محدودية استخدام الفضاء العام. كما أسهمت الإضافات العشوائية على المباني المحيطة في إفقاد المكان جاذبيته وتشويه واجهاته

التاريخية، فضلًا عن الملوثات البصرية المتعددة التي طغت على المشهد.

مورفولوجيًا، يغلب على الساحة الطابع الطولي الذي يحاكي الممر أو الطريق. ورغم أنّ هذا الشكل لم يحل سابقًا دون قيامها بوظيفتها الاجتماعية، فإن الطفرة العمرانية العامودية على جانبيها، مقترنة بازدياد حركة المركبات وسرعتها، عززت الطابع المروري للساحة على حساب دورها الأصلي. وزاد الوضع تعقيدًا إقدام البلدية السابقة على إنشاء حاجز إسمنتي يفصل بين حارتي المرور، ما كرس الطابع الطولي وألغى ما تبقى من خصائص التلاقي.

فاصل بين حارتي المرور أنشأته البلدية السابقة ساهم في تكريس التكوين الطولي للساحة

بالرغم من النمو العمراني الذي شهدته البلدة وتوسّعها بعيدًا عن المركز، ظلت الساحة نقطة رئيسية في شبكة الحركة من دون استحداث طرق بديلة تخفف الضغط عنها. لكن التحدي الأعمق

يكمن في أن مساحة الساحة لم تعد تتناسب مع حجم العمران والكتلة السكانية التي تضاعفت عشر مرات تقريبًا منذ بداية القرن الماضي، إذ بقيت الساحة على حجمها القديم غير قادرة على تلبية احتياجات مجتمع متنامٍ.

الساحة تخترقها شبكة من الطرق الرئيسية

هذا الاختلال يشبه جسدًا تضخم حجمه بينما ظل قلبه صغيرًا عاجزًا عن ضخ ما يكفي من الدم لإحياء الأعضاء. ومع أن الساحة بدت كمن فقد نبض الحياة، فإن استعادتها ممكنة، وإن كان مشروطًا بتحولات جذرية وتوافر مقومات أساسية تجعل من المستحيل ممكنًا.

8. المناقشة

8.1 ربط النتائج بالأطر النظرية حول الحيّز العام

تُظهر نتائج الدراسة أن تراجع الدور الاجتماعي لساحة العين يرتبط مباشرة بالعوامل المورفولوجية والتنظيمية، وهو ما يتوافق مع ما طرحه هابرماس حول أهمية الفضاء العام كحيّز للتداول والتلاقي، مشروط بوجود ظروف مادية وبنيوية ملائمة. كما يؤكد ذلك ما ورد في الأدبيات العمرانية التي ترى أنّ جودة الفضاء العام تتحدد بتوافر عناصر الراحة، الأمان، وجاذبية المشهد البصري، وهي جميعها عناصر غائبة أو ضعيفة في حالة ساحة العين.

8.2 المقارنة مع أمثلة مشابهة في لبنان أو المنطقة

تتشابه حالة ساحة العين مع العديد من الساحات في المدن والبلدات اللبنانية مثل ساحة باب السراي في صيدا أو ساحة الميدان في طرابلس، حيث أدى ضغط الحركة التجارية والمرورية إلى تقليص أدوارها الاجتماعية والثقافية. كما أنّ التدخلات المحدودة التي جرت في بعض هذه الساحات غالباً ما اقتصرت على تجميل بصري أو تحسينات سطحية، دون معالجة جذرية للعوامل المؤثرة. بالمقابل، تُظهر تجارب أخرى في المنطقة، مثل بعض الساحات المُعاد تأهيلها في جبيل وصور، أنّ إعادة الاعتبار للحيّز العام يتطلب مقاربة شاملة تشمل التنظيم المروري، تحسين البنية التحتية، وتأهيل الواجهات المحيطة.

8.3 تفسير تراجع الدور الاجتماعي للساحة

يمكن تفسير تراجع الدور الاجتماعي لساحة العين كنتيجة لتفاعل ثلاثة مسارات:

1. المسار المورفولوجي :الطابع الطولي للساحة وهيمنة الطريق العام عليها.

2. المسار التنظيمي :غياب سياسات واضحة لإدارة الحركة، وترك الساحة تحت سيطرة المركبات والتجارة العشوائية.
3. المسار الاجتماعي :تغيّر أنماط استخدام السكان وتراجع ثقافة التلاقي في الفضاءات المفتوحة لصالح أنشطة مغلقة وخاصة.

هذا التداخل يفسر كيف فقدت الساحة تدريجياً هويتها التاريخية كفضاء جامع، وكيف تحولت إلى فضاء وظيفي محدود، يعكس أزمة أوسع في إدارة الحيّز العام في لبنان.

9. التوصيات

9.1 إجراءات قصيرة المدى

- تنظيف الساحة وإزالة العوائق المادية والفوضى البصرية.
- تنظيم الواجهات التجارية واللافتات بما ينسجم مع الطابع العمراني.
- تحسين الإضاءة وتأمين مقاعد وعناصر ظلّ مؤقتة لتشجيع البقاء.

9.2 إجراءات متوسطة المدى

- إعادة تنظيم حركة المرور داخل الساحة ومحيطها، وتهدئة حركة المركبات لصالح المشاة.
- تخصيص معابر آمنة للمشاة وإنشاء نقاط تجمع صغيرة.
- إعادة تأهيل المباني المحيطة ذات القيمة التاريخية، مع التفكير في إزالة التعديلات العشوائية.
- البدء بدراسة إمكانية توسيع الحيّز من خلال تحديد الأبنية المحيطة التي لا تحمل قيمة تاريخية ويمكن إزالتها في إطار خطة مستقبلية.

9.3 رؤية طويلة الأمد لإعادة تفعيل الساحة

- إطلاق مشروع إعادة هيكلة شاملة يهدف إلى تحويل الساحة من مجرد شارع عريض إلى فضاء عام متكامل. يشمل ذلك:
  - إزالة بعض الأبنية المحيطة التي لا تتمتع بقيمة تاريخية من أجل خلق فراغ أوسع.
  - إعادة صياغة الساحة بشكل يتجاوز الطابع الطولي الضيق الحالي نحو شكل هندسي يسمح بالتجمع والتفاعل.
  - تجهيز الساحة ببنية تحتية وأثاث حضري نوعي (مقاعد، مظلات، إضاءة معمارية، مساحات خضراء صغيرة).
- إدماج الساحة في شبكة الفضاءات العامة لبرجا ومحيطها، وربطها بمسارات المشاة والمرافق الحيوية.
- اعتماد نموذج إدارة تشاركية بين البلدية وأصحاب المصلحة المحليين لضمان استدامة التدخلات.

الفكرة الجوهرية هنا :لا يمكن ارتقاء ساحة العين إلى مستوى "الحيّز العام" إلا بإجراء بنيوي يعالج ضيق المساحة والطابع الطولي، وذلك عبر إزالة مبانٍ غير تراثية وفتح الفضاء على نحو أرحب.

10. الخاتمة

10.1 الخلاصات الرئيسة

أظهرت الدراسة أنّ ساحة العين في برجا، رغم رمزيتها التاريخية والاجتماعية، قد فقدت الكثير من مقوماتها كفضاء عام جامع. فقد تحوّلت إلى مجال عبوري وتجاري محدود الوظائف، نتيجة عوامل مورفولوجية (الطابع الطولي الضيق)، ووظيفية (هيمنة المركبات والأنشطة التجارية)، وتنظيمية (غياب الإدارة الحضرية الفعّالة).

كما كشف التحليل أنّ غياب الأثاث الحضري والتجهيزات الأساسية ساهم في تقويض وظيفتها الاجتماعية.

10.2 التأكيد على التحدي البنيوي

إنّ محدودية مساحة الساحة مقارنة بالتوسع العمراني الحديث، تجعلها اليوم تفتقر فعلياً إلى مقومات "الساحة" بالمعنى العمراني والاجتماعي. فهي في واقع الأمر مجرد شارع عريض أكثر مما هي فضاء للتلاقي. وقد كانت تتناسب مع الحجم السكاني للبلدة خلال النصف الأول من القرن الماضي، غير أنّ تحولات العقود الأخيرة جعلت الحاجة ماسة إلى توسعة الحيّز وإخراجه من شكله الطولي الحالي.

10.3 آفاق مستقبلية

لا يمكن إعادة إحياء ساحة العين كفضاء عام فاعل دون إجراء بنيوي جذري يتمثل في إزالة بعض الأبنية المحيطة التي لا تحمل قيمة تاريخية، وفتح المجال لتشكيل فراغ حضري أرحب وأكثر ملاءمة للوظائف الاجتماعية والثقافية. أي تحسينات تجميلية أو مرحلية ستظل محدودة الأثر ما لم تترافق مع رؤية عمرانية شاملة تُعيد صياغة الساحة وتربطها بالنسيج المديني للبلدة. ومن شأن هذا التوجه أن يكرّس الساحة من جديد كواجهة لهوية برجا وذاكرتها الجمعية، ومجالاً للحياة المشتركة بين أهلها.

11. المراجع

1- أ. شفيق دمج، برحا منذ القدم حتى اليوم (بحث منشور في الموسوعة الإيرانية العالمية 1997)
2- علاء دمج، أوراق من حقيبة البلدية (2000)
3- الصور من أرشيف مجلة برجا الغد
4- Google earth
5- المخطط التوجيهي لمنطقة برجا

6- Kant, I. (1784/1991). *An Answer to the Question: What is Enlightenment?* In Reiss, H. (Ed.), *Kant: Political Writings*. Cambridge University Press.
7- Habermas, J. (1962/1989). *The Structural Transformation of the Public Sphere*. MIT Press.
8- Carmona, M., Heath, T., Oc, T. & Tiesdell, S. (2010). *Public Places Urban Spaces: The Dimensions of Urban Design*. Routledge.
9- UN-Habitat. (2015). *Global Public Space Toolkit: From Global Principles to Local Policies and Practice*. UN-Habitat.

المحتوى

1. المقدّمة 3
1.1. الإطار النظري:مفهوم الحيّز العام والساحة العامة 3
1.2. أهمية دراسة الساحات العامة في السياق اللبناني 4
1.3. أهداف البحث 5
2. منطقة الدراسة :ساحة العين – برجا 6
2.1 لمحة عن برجا :الموقع والتاريخ والنسيج العمراني 6
2.2 الموقع الجغرافي للساحة وعلاقتها بالنسيج القديم 7
2.3 الوظائف التاريخية والاجتماعية للساحة 9
3. الإشكالية وأهداف البحث 10
3.1 صياغة الإشكالية الرئيسة 10
3.2 الأسئلة الفرعية للبحث 11
3.3 الفرضية 12
4-المنهجية وأدوات البحث 12
4.1 المنهج الوصفي–التحليلي 12
4.2 أدوات جمع البيانات :الملاحظة – المقابلات – التوثيق الصوري 13
الملاحظة المباشرة 13
المقابلات شبه الموجهة 13
التوثيق الصوري 14
4.3النطاق الزمني والمكاني للدراسة 14
4.4حدود البحث 14
5. -التحليل المورفولوجي للساحة 15
5.1شكل الساحة (الطابع الطولي/المسقط العام) 15

5.2مداخل الساحة وعلاقتها بالحركة 15
5.3الإطار المبني والواجهات المحيطة 16
5.4حالة المباني والتلوثات البصرية 17
6. الاستخدامات والأنشطة 18
6.1الوظائف الحالية للساحة 18
6.2طبيعة النشاطات الغالبة (تجارية/عابرة) 18
6.3الممارسات الاجتماعية والأنماط السلوكية للمستخدمين 19
6.4الفئات العمرية والاجتماعية المستفيدة من الساحة 19
-7النتائج والتحليل 19
7.1 تأثير الطابع المورفولوجي على وظيفة الساحة 19
7.2تأثير الحركة (المشاة/المركبات) 20
7.3أثر غياب الأثاث الحضري والتجهيزات 20
7.4انعكاسات الوضع الحالي على الدور الاجتماعي للساحة 20
7.5ساحة مأزومة: عوامل الأزمة وتجلياتها 20
8. المناقشة 24
8.1ربط النتائج بالأطر النظرية حول الحيّز العام 24
8.2المقارنة مع أمثلة مشابهة في لبنان أو المنطقة 24
8.3تفسير تراجع الدور الاجتماعي للساحة 24
9. التوصيات 25
9.1إجراءات قصيرة المدى 25
9.2إجراءات متوسطة المدى 25
9.3رؤية طويلة الأمد لإعادة تفعيل الساحة 26
-10الخاتمة 26
10.1الخلاصات الرئيسة 26
10.2التأكيد على التحدي البنيوي 27
10.3آفاق مستقبلية 27
11. المراجع 28